إهداء

إلى روح والدي ..... رحمه الله .

إلى روح د. عصمت سيف الدولة ..... رحمه الله .

... هل كانا يشبهان عبد الناصر ؟!

... أم أن عبد الناصر كان يشبههما ؟!

أم أنهم جميعا كانوا من عصر عبد الناصر !

المؤلف

شراع الأمل

هذه ليست قراءة جديدة لوثائق ثورة ٢٣ يوليو أو لفكر قائد الثورة – الزعيم الخالد جمال عبد الناصر – فمازالت أفكار القائد جديدة طازجة ، وربما يرجع ذلك لسببين :

أولهما : أصالة الأفكار؛ لأنها كانت تعبيرا حيا عن تفاعل القائد الفذ – الذي كان شخصية استثنائية – مع واقعه .

ثانيا : كانت أفكار القائد وحصيلة نضاله هي الاستجابة المثالية الصحيحة لتحدي مشاكل الواقع العربي – وفق نظرية التحدي والاستجابة لتوينبي- ويبدو أن الأمة العربية بعد رحيل عبد الناصر قد أصبحت خارج السياق أو التاريخ – لأنها تنكبت طريقه ، فما زلنا نعاني من نفس المشاكل ، ربما زادت حدتها ولكن لم تتغير طبيعتها .... مازال تحدي الاستعمار قائما، ولكن الأمة فقدت قدرتها ورغبتها في مقاومته ، يبرر الشباب تحديدا انصرافهم عن الاهتمام بالشأن العام بأن سعد باشا قالها زمان – مفيش فايدة – إنهم أبناء الشعب الذي واجه أقوى ثلاث إمبراطوريات مسلحًا بقوة الإيمان التي بثها في عروقه قائد جسور تجري في عروقه دماء العزة والكرامة . مازالت الأمة تعاني فقرا مدقعا يهد حيلها رغم أنها تقيم علي بحار من النفط والخيرات تقف عاجزة عن أخذ حقها... تعشق ضعفها – المزعوم – رغم مخازن القوة الكامنة فيها ، مازالت الأمة تهب من سباتها كلما ألم الألم بجزء من بدنها ثم هي تدعي بأن الوحدة العربية وهم من صنع أحد أبنائها ... ببساطة مازال حلم عبد الناصر هو الممكن الوحيد مهما بدا بعيدا ... ومنذ متى كانت الأحلام الكبيرة تبدو سهلة المنال ! كان القائد يؤمن إيمانا راسخا بهمة شعبه ويسميه الشعب المعلم ونحن علي دربه ؛ لأن البديل صعب ومخيف ... صعب علي النفس العربية التي حملت في يوم من الأيام مشعل الحضارة لكل الإنسانية جمعاء ورغم بعض السحابات البدوية الجلفة التي استعلت بالعرق والجنس علي باقي خلق الله ورغم بعض رياح السموم الآتية من

الصحراء تخنق العقل وتشوه الروح تستعلي علي الناس ... بماذا ؟ لاشيء ولكنها تقسم الناس مذهبيا وطائفيا وتنشر الخراب في ربوع الأوطان ... رغم هذا كله ومن تحت الأوحال نلمح بريق الأمل ، إنها كنز الأمة المخبوء تدخره ليوم صعب ... إنها أفكار القائد وكلماته تنير لنا الطريق نحو حلمنا الجميل الآتي .

لهذا تبدو هذه القراءة معاصرة وليست جديدة ، فالنصوص واضحة لا تحتاج إلى تأويل نراها في وثائق ثورة ٢٣ يوليو فلسفة الثورة والميثاق وبيان ٣٠ مارس ومذكرات القائد في حرب فلسطين[١] ... كان بعض الإخوة حسن النية – أحيانا يكون حسن النوايا هو الطريق السريع إلي جهنم – يرون ضرورة تجديد الفكر الناصري – ذلك هو الاسم المهذب لتغيير الفكر الناصري – حتى يتوائم مع العصر الجديد ، وكأن الفكر موضة أو صرعة، وليست استجابة لواقع معاش وكانوا يطرحون ذلك تحت مسمي الناصرية في عالم متغير ، حسنا نحن لانري ذلك ...لا جديد نقدمه في فكر القائد الذي نراه جديدا كل الجدة ولكننا نقدم قراءة معاصرة لفكر القائد أو بمعني أصح نحاول أن نفهم واقعنا وتحدياته مهتدين بفكر عبد الناصر، إنه شراع الأمل يأخذنا إلي بر الأمان ، كان ذلك مذهبنا وسيظل إلي أن يأذن الله، ويمن على أمتنا بالنصر المؤزر علي أعدائها وتحقق حلمها الذي عاش ومات في سبيله القائد المعلم جمال عبد الناصر في وطن الحرية والاشتراكية والوحدة ، هذا وعلي الله ثم الأمة قصد السبيل.

المنصورة يناير ٢٠١١

د.محمد عوض طه

(١) عبد الله السناوي – يوميات جمال عبد الناصر في حرب فلسطين –النصوص الكاملة بخط يده – الناشر مكتبة جزيرة الورد – ٢٠١٠.

لحظة قبل الدخول

تم إعداد هذا العمل نهايات عام ٢٠١٠م ، وتمت مراجعة «بروفاته» أثناء ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١. لذا لزم التنويه حتى نزيل الالتباس ، فقد كانت الأحلام تراودنا وأصبحت بالثورة حقيقة فلا يلومنا أحد بأن أحلامنا تأخرت ولكن نقول أن قلوبنا العامرة بحب الله والشعب كانت تجعلها يقينًا .. فاللهم أدمها علينا نعمة وعلى شعبنا العربي في مصر وكل مصر نصرًا مؤزرًا .. آمين .

هل مات عبد الناصر ....؟!

نعم مات... لا.. لم يمت ... يعني إيه ؟!

نعم مات عبد الناصر ، لأنه إنسان يجري عليه من نواميس الكون مايجري علي كل خلق الله ...

ألم يمت الأنبياء والرسل ...؟

ألم يمت القديسون والشهداء...؟

ألم يمت أبطال التاريخ العظام ، فلماذا يكون عبد الناصر وحده – دون بقية خلق الله – استثناء، بغض النظر أردنا ذلك – نحن المحبون له- أم لم نرد .

بغض النظر أيضا – اختلفنا في ذلك أم اتفقنا – إن رحيله كان مصيبة ألمت بالفقراء والكادحين ، وكل الحالمين بمجد هذه الأمة – المستضعفة – ....كان ياسر عرفات يردد دائما خاصة بعد الشتات الثاني في ١٩٨٦« كل المصائب تهون وتصغر بمرور الزمن إلا مصيبة واحدة ...مصيبة فقد جمال عبد الناصر ، فكلما مر الوقت كبرت المصيبة وتضخمت» .

نعم مات عبد الناصر الإنسان ورحل عنا بجسده كما يموت كل البشر ...«أيها الناس من كان يحب عبد الناصر فإن عبد الناصر قد مات ومن كان يؤمن بمبادئ وأحلام عبد الناصر فإن المبادئ والأحلام باقية حية لا تموت» .

ومازالت الأمة العربية التي عاش لها وخاض معاركها الكثيرة والكبيرة والعظيمة من أجلها ورحل وهو في ريعان شبابه مستشهدا في حبها ...نعم مازالت الأمة العربية كلها ...نعم كلها باستثناء بعض أمرائها وحكامها وبعض من مثقفين ضلوا طريقها ...مازالت الأمة تعشق ابنها ...أجمل وأروع وأخلص وأعظم - إلي

آخر كل أفعال التفضيل والتحسين - من ظهروا في ربوعها ومازالت ذكرياتها معه أروع وأكرم وأعز وأنبل وأشرق صفحاتها ، ومازال صوته الرجولي القوي يهز وجدانها وهو يخاطبها فترد عليه وينادیها فتلبي نداءه ويغازلها ويتغزل فيها ...مازالت الأمة وفية له ولذكراه كما كان هو وفيا لأحلامها وأمانيها ... حقا وصدقا كان رجلا اتسعت همته لآمال أمته، وآية ذلك أن رحى المعركة معه وحوله وعنه دائرة كأشد ماتكون ولو افترضنا جدلا أن عبد الناصر الحاكم الذي تم شيطنته من قبل الدوائر الغربية الاستعمارية المعادية للعرب والمسلمين ، قد حكم البلاد والعباد ستة عشر عاما ، أفلا تكفي ستة عشر عاما لإزالة آثار عدوانه ، أفلا تكفي اثنا وثلاثون عاما لإزالة آثار عدوانه ، أفلا تكفي ثمانية وأربعون عاما لإزالة آثار عدوانه علما بأن الهدم أسهل ألف مرة من البناء.

***

لقد رحل عبد الناصر عن دنيانا في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠، ورحل كل رفاقه إلا قليلا – ندعو لهم بطول العمر والصحة - ورحل معظم أبناء جيله – جيل الحرب العالمية الثانية من القرن الثاني – ومازالت المعركة دائرة ...هل يحكمنا هذا الرجل من قبره ؟ ! كيف ذلك ؟ !

كان عبد الناصر معاديا لإسرائيل ، وخاض معها حربا ضروسا متعددة الجولات شغل بها الدنيا كلها شعوبا وحكومات وحركات وأحزابًا ومؤسسات وحين رحل عن دنيانا كانت كل الأمة العربية شعوبا ودولا على خط النار وحشد خلفه كل إفريقيا السمراء ماعدا دولة جنوب إفريقيا العنصرية وكانت آسيا كلها خلفه بأجرامها الكبري، الإتحاد السوفييتي – الذي كان – والهند والصين ...آسيا كلها ماعدا نظام شاه إيران الموالي لأمريكا وإسرائيل – طيلة عمره – وكانت دول

المعسكر الشرقي كلها معه ماعدا دولة واحدة هي رومانيا – دولة الديكتاتور المقتول شاوشيسكو صديق السادات الأنتيم – وكانت دولا وشعوبا كثيرة في أمريكا اللاتينية علي رأسها كوبا تناصر قضايانا، وبعد أقل من عقد واحد من رحيله كان العقد قد انفرط وأعلنت القاهرة أنها طلقت الصراع إلي الأبد طلاقا باتنا لارجعة فيه، وجرت ورائها كل دول العرب إلي الصلح مع العدو الصهيوني سرا وجهرا وانهارت كل السدود والحدود والخطوط والحوائط أمام الكيان الصهيوني فانطلق يتمدد ويتمدد ويتوغل حتى أنه بدأ حصار مصر – التي خلعت جلدها العربي – برا وبحرا وحتى نيلا .

كان عبد الناصر منحازا للفقراء الكادحين فلاحين وعمال يعبئ كل موارد الأمة والوطن من أجلهم وفي عهده دخل أولاد الفقراء الجامعات وركبوا كراسي القضاء والنيابة والجامعة وصار منهم أطباء ومهندسون وضباط وأساتذة جامعات – كل واحد بجده وعرقه دون واسطة ... تخيل!! - وبعد رحيله في ميعة الصبا انطلق جيش مصر الذي بناه عبد الناصر بعد النكسة يعبر قناة السويس ليعيد الأرض المحتلة إلي جيوب حفنة من رجال الأعمال أعادوا البلاد إلي العصور الوسطي – قالوا : إن اشتراكية عبد الناصر كانت اشتراكية الفقر وبعد رحيله أصبحت مصر والمصريون يتسولون كسرة الخبز من الأعداء بل إن هناك مصريين يبحثون عن قوتهم في (مقالب الزبالة) – وصار المصريون بعد عبد الناصر وفي عصر السلام الموهوم(!!) حياري تتلقفهم المنافي وتعود توابيت الموت بجثثهم ، فضلوا الغرق في مياه البحر خلف حلم أو وهم الستر علي البقاء في جحيم الوطن ... الذي لم يعد لهم وطن وضن عليهم بلقمة العيش الحلال وفرصة العمل الشريف .

كان عبد الناصر يري أن مصر جزء من أمة عظيمة هي الأمة العربية ... ملئت

الدنيا عدلا بعد أن كانت جورا وأضاءت بشمسها الخافقين بعد أن كانت الدنيا تسبح في بحور الظلام وكان حلمه الكبير الوطن الأكبر وتمادي في أحلامه فأمم قناة السويس فثروة العرب – من وجهة نظره – يجب أن تكون للعرب ونفط العرب يجب أن يكون سلاحا في يد العرب لا نقمة علي العرب .

وبعد رحيله لم يكتمل العقد إلا وكانت أمته شظايا منقسمة بين عرب النفط وعرب الماء، وبين الاثنين نشبت حرب داحس والغبراء فضاعت شوكة العرب وثروة العرب وصارت كراهية الإخوة هي الدين الرسمي لأمة – كانت عظيمة – ... وكانت الافتتاحية دعوة كريهة نشأت نبتا شيطانيا علي ضفاف النيل ... مالنا ومال العرب ؟ نحن لسنا عربا وتطاول البعض فقال : «**إن العرب جرب**» وتمادى البعض فرأي أننا فراعنة (!!) ورأى آخرون أننا متوسطيون (!!) .

رحل عبد الناصر ولم تتجاوز سنه الثانية والخمسون بعد أن تصدر المشهد الدولي لستة عشر عاما وهو مادفع شوين لآي – رئيس وزراء الصين العتيد ورفيق ماو التاريخي – أن يسأل هيكل مستنكرا في أول زيارة له للصين بعد رحيل عبد الناصر ... لماذا تركتم الرجل يموت ؟ وعندما اندهش الرجل ، رد عليه قائلا : أنا أكبر منه بما يزيد علي عشرين عاما ، وهاأنت تري صحتي ... إذ الخمسين عندنا هنا في الصين هي بداية مرحلة العطاء وذروة الشباب .

وفي عهد عبد الناصر كان يتردد أن العالم تحكمه ثلاثة عواصم هي : واشنطن وموسكو والقاهرة .

رحل جمال عبد الناصر بالجسد ... نعم ، ولكن أحلامه مازالت تداعب عيون الأمة كلها من مشرقها إلي مغربها وكلما ضاقت حلقات الأزمة زاد الحنين إلي الرجل ، وكلما زاد تجبر وظلم الأعداء تذرع أبناء الأمة بالرجل وعصره وسياساته ورفعوا

صورته يتحدون بها الهوان والخذلان ... وتأملوا عندما يلعب القدر – يد الله – لعبته ، لعل وعسى تنقشع الغشاوة عن أعين الغافلين ... سمير القنطار عميد الأسرى العرب واللبنانيين في سجون الاحتلال الصهيوني – ثمانية وعشرون عاما – درزي المذهب ... أيقونة المقاومة وحزب الله – الشيعي – يرد علي سقوط مصر في «اسطبل داود» بالبندقية الصامدة المقاومة في عملية سماها هو «ناصر ».

فمن هو جمال عبد الناصر ؟ !

إنه قائد ثورة يوليو ٥٢ و منشئ مصر الحديثة وبطل الأمة التاريخي في عصرها الحديث ... رحل عبد الناصر بالجسد وهذه هي سنة الله ، وبقيت لنا أفكاره وأحلامه ... أو كما قال : – « إننا نحلم بمجد أمة وسوف نبني هذا المجد » وتلك هي سنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ .

ولتعرف عبد الناصر ... الحلم والفكرة فليس هناك ماهو أفضل من قراءة وثائقه ... وثائق ثورته ، كتب بعضها بنفسه مثل فلسفة الثورة وأشرف علي كتابة بعضها الآخر مثل الميثاق وبيان ٣٠ مارس ... فهل نتقدم لندخل عالمه .

إن الطريقة المثلي لقراءة فكر عبد الناصر هي قراءة وثائق الثورة السابق الإشارة إليها علي اعتبار إنها تمثل مجتمعه وفي تتابعها الزمني تطور فكر قائد الثورة وهي المرآة الصادقة لحيوية وعظمة هذا الرجل الذي كان يتطور في حركة جدل – تأثر وتأثير متبادل – خلاقة، فكما كان يقول عبد الناصر : « لقد كان من أعظم ملامح تجربتنا الثورية أننا لم ننهمك في النظريات بحثا عن حياتنا ولكننا انهمكنا في حياتنا بحثا عن النظريات » ... وعظمة عبد الناصر تكمن في أنه كان تلميذ نجيب للجغرافيا والتاريخ ، نظر ثاقب وفكر خلاق ... وعبد الناصر في فلسفة الثورة يؤسس لرؤية فكرية جديدة تماما تؤلف تأليفا فعالا بين ماضي الأمة وأحلامها ، وماضي الأمة

الذي هو حصيلة الفعل التاريخي للأسلاف العظام في زمن ماض علي رقعة من الأرض كفلت لها تجانسا لايمكن إنكاره وظروف تاريخية معينة شكلت تاريخا وتراثا كان عبد الناصر ومعه أمته أوفياء لهذا التاريخ وهذا التراث ، ولم يكونوا أبدا سجناء هذا التاريخ وهذا التراث بل انطلقوا يحملونه فيهم ومعهم يواجهون به تحديات عصرهم .

ويبدأ الرجل في وثيقته الأولي بالتأكيد علي أن تاريخ الشعوب هو نهر متصل من الأحداث وليس خبط عشواء أو حلقات لا رابط بينها تفصلها عن بعضها فجوات يملؤها الهباء وهو – أي التاريخ – ليس فيه مفاجآت تقفز إلي الوجود دون مقدمات ... مامعني هذا ؟!

معنى ذلك أن حركة المجتمعات البشرية – التي يشكل تراكمها التاريخ ، تسير وفق سنن أو قوانين أو نواميس « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ولقد رأي البعض أن « الصيرورة التاريخية » التي شغلت عبد الناصر كانت نتاج تتلمذه في بعض الحلقات الماركسية أو تأثره ببعض رفاقه اليساريين. وحقيقة الأمر أن فكرة «عقلانية التاريخ » ليست فكرة ماركسية ولكنها فكرة إنسانية توصل إليها الإنسان في زمن نضجه بعد أن غادرت الإنسانية طور الطفولة الأولي التي كانت تضع مصائر البشر وحركة الطبيعة في أيدي قوي خارقة وأن الإنسان مفعول به على كل حال ... ثم تطورت البشرية وبدأت ترى أن السنن أو النواميس هي سمة هذا الكون ولعبت الأديان السماوية وخاصة الإسلام دورا غير منكور في إحداث هذا التحول ... فقد صار الإنسان أخيرا هو صانع تاريخه ... فاعلا منفعلا وليس مفعولا به ... « ولقد هدينا الإنسان السبيل إما شاكرا وإما كفورا » وهو باحترامه لسنن ونواميس الكون – التي وضعها الخالق – يكتب قصة حياته إما بائسا خائفا مهزوما، وإما قويا آمنا خليفة لله في أرضه ، لذلك فالسبب دائما يسبق النتيجة .

إن الله كما خلق الإنسان والكون ومعهما السنن الحاكمة لحركتهما ، ترك للإنسان مساحة كبيرة من الحرية ومنحه الإرادة ... إرادة الاختيار ورتب على ذلك نتيجة محققة سريعة في الدنيا – نجاح سعي الإنسان – ونتيجة مضمونة متأخرة – جنة طيبة – فمن خاب سعيه في الحياة الدنيا فلا ينتظر سوى الخسارة المحققة ... دنيا وآخرة .

تلك قيمة إنسانية تشكل لدي الإنسان ضميره وإيمانه ... ماهو الإيمان ؟!

إنه القدرة على تحدي الظروف والمعوقات أملا في النصر الذي وعد به الله عباده المؤمنين ، كما كان عبد الناصر يؤكد دائما :- « إن النصر عمل ، والعمل حركة ، والحركة فكر وإيمان ... وهكذا فكل شيء يبدأ بالإنسان .»

« إن الذين يقاتلون يحق لهم أن يأملوا بالنصر، أما الذين لايقاتلون فليس لهم أن ينتظروا شيئا سوي القتل »

وهكذا فمن جد وجد ومن زرع حصد حتى لو كان كافرا ... حتى لو كان لايعترف بوجود الخالق ... فسنن الكون ونواميسه سوف تفعل فعلها شاءت إرادة الإنسان أم أبي ، ولكن سعد من وعاها وشقي من عاندها .

تلك كانت بذرة الإيمان الأولى التي كان عبد الناصر يؤمن بها ولهذا سعى واثقا بنصر الله إلي تأسيس تنظيم الضباط الأحرار يستهدف به تغيير مسار التاريخ – الخاطئ من وجهة نظره – ليحوله إلى مساره الصحيح ... حيث تعمل السنن أو النواميس .

إذا فنحن أمة قد نكبت مؤخرا بحكامها وأعدائها، فحرفوا مسارها ومسيرتها عن الطريق القويم وحتى يستمر هذا المسار الخاطئ قسموا الأمة وقطعوا أوصالها ثم فرضوا التجزئة والفرقة، وكذلك الجهل ونشروا الخرافة ... وكانت الحملة

الفرنسية صدمة كبرى للأمة أيقظتها من سباتها العميق فبدأت تبحث عن الطريق .

عموما فإن قراءة فكر القائد في وثائقه أو فكر ثورة يوليو عبر وثائقها يمكن أن يتم عبر منهجين، **أولهما**: عرض وثائق الثورة واحدة واحدة بتسلسل زمني حسب صدورها ... إنها طريقة ذات طابع مدرسي لم تصادف هوى لدينا لسببين :

الأول : هو التعرض لنفس القضية مرة بعد مرة وبشكل جزئي فسوف نتعرض لقضية (الديمقراطية) مثلا عبر فلسفة الثورة في أكثر من موضع ثم نعيد التعرض لها مرة أخرى عند تصدينا للحديث عن الميثاق ثم نعرض لها مرة ثالثة عند الحديث عن بيان ٣٠ مارس وهكذا ... مسألة مثيرة للارتباك .

الثاني : ليس بادعاء الحكمة بأثر رجعي ولكن التعرض لقضية (ما) كقضية الديمقراطية مثلا في فكر القائد يمكننا أن نراها كاملة رائقة صافية كما أرادها القائد في حياته ...أو بمعنى أصح آخر حياته عندما نتعرض لها مرة واحدة ... وهذا هو منهجنا الذي فضلنا اتباعه ، ربما لا يكون الأكثر صحة نظريا، ولكنه كان الأفضل من وجهة نظرنا سياسيا وعمليا .... فهل نتقدم خطوة أخرى ؟!